

نظرات في الإسراء والمعراج.. للإمام الشهيد حسن البنا



الاثنين 23 مارس 2020 09:41 م
من كتاب "حديث الثلاثاء"

(1)

نحمد الله تبارك وتعالى، ونُصلي ونسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين، أما بعد... فسلام الله عليكم ورحمته وبركاته...

نحمد الله تبارك وتعالى على تهيئة هذه الفرصة التي اجتمعنا فيها لإحياء ذكرى جلييلة ومحبية إلى القلوب، تلك هي ذكرى (الإسراء والمعراج) توافينا كل عام في مثل هذا الشهر الفاضل رجب الفرد، وهو شهر مبارك، أوقاته تشرىفات ربانية، من كان محسناً زاده الله إحساناً فيه، ومن كان مُسيئاً فتح له باب القبول في هذا الشهر المبارك، في سعة وكرم.

ولن نتناول هنا الإسراء والمعراج بالشرح والتفصيل، فكلكم تسمعون عنها، إنما هي نظرات سريعة، فالإسراء رحلة قام بها النبي- صلى الله عليه وسلم- من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، والمعراج رحلة سماوية، قام بها- صلى الله عليه وسلم- من المسجد الأقصى إلى السموات العُلى.

الرحلتان كانتا في ليلة واحدة، وباشرهما الرسول الكريم كإنسان كامل، وقد أشار القرآن إلى القصة في سورة الإسراء، وبعضُ الناس يقف عند القِصَّة وفُقمة تأمل أو تردُّد، فيسأل: هل تتفق القصة ونواميس الله في خلقه، فيكون هناك إنسان خُلق من لحم ودم ويحتاج لكل مقومات المادية، ثم يصعد إلى السموات، مع أننا نعلم تخلخل الهواء في مكان معلوم، وفقدان "الأوكسجين" في نقطة معلومة؟ كنا نقول لهؤلاء هي قُدرة الله تعالى، وسعت كل شيء فهو أمر ممكن لا يستحيل على قدرته تعالى، ولكن... هل أحطتم بكل العلم شارده ووارده؟

الواقع أيها الإخوان أن العلم الحديث قد كشف تلعيل ذلك في أن الإنسان فيه عنصر آخر غير عناصر المادة، ذلك هو العنصر النفساني، الذي يُطلق عليه عالم الروح والنفس، ولو كان العلم لم يصل بعد لحقيقته، فإنه قد وصل إلى أن الروح لها من القدرة على الجسم ما تستطيع به أن تؤثر عليه وتحتجزه فتخصه لقوانينها، لا لقوانين المادة، والواقع أن بعض الحوادث تفسر لنا ذلك، فهناك بعضٌ من صوفية الهند يستطيع أن يتحكم في جسمه بقوة روحه، ويمكث أسبوعاً، وعندنا التنويم المغناطيسي الذي يجعل الروح تسيطر على الجسم.

فالذي حدث في قصة (الإسراء والمعراج) أن الله تعالى أقاصَ على نبيه الكريم قوةً روحيةً عظيمةً، تحكمت في جسمه وسيطرت عليه، وليس معنى هذا أنه أسرى بالجسم دون الروح، وإنما أسرى بالروح والجسم، وبعض الناس يتساءلون: وما حكمة الإسراء والمعراج؟

وأعتقد أن الإسراء والمعراج مادة أساسية في منهاج التربية الإلهية، وذلك أن الله تعالى أعد رسوله الكريم ليكون سيد المرثين والمعلمين، فلا بد أن يكون بمنزلة من العلم تفوق أيّ منزلة سواها من منازل البشر؛ ولهذا طاف الله به السموات ليكون إيمانه رؤبةً ومشاهدةً، وليس إيماناً نظرياً، وهناك حكمة أخرى فيها سموُّ القدر وجلال المنزلة، فالحق تبارك وتعالى قد فرض الصلاة على المسلمين ليلة الإسراء والمعراج، ولم يشأ فرضها عن طريق الوحي كغيرها من الفرائض، وإنما استدعى نبيه الكريم؛ ليبين للناس أن الصلاة جلييلة القدر، عظيمة المكانة، وأنها مادة أساسية في منهاج التربية الإسلامية، فهي نظافة ونشاط وصحة وعلم وأخلاق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم..

(2)

حمد الله تبارك وتعالى.. ونُصلي ونسلم على سيدنا "محمد" وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

أظنكم قد أعلنتم أن حديث الثلاثاء سيكون في الإسراء والمعراج، وهو موضوع لا يُعالجه الإخوان كقصة، وإنما يُعالجونه كعبرة وعظة من جانب، وكدافع للعمل من جانب آخر وحسبنا فيه- كقصة- ما جاء به القرآن الكريم، أن الله تبارك وتعالى قال في الإسراء والمعراج: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الإسراء:1).

ففي هذه الآية التصريح بالإسراء، ومن لطائفها ذكر المسجد الأقصى مع أن المسجد الأقصى لم يكن مسجدًا اصطلاحًا، بل معبدًا، فإطلاق الله تعالى عليه مسجدًا فيه حافز للمسلمين ليفتحوا هذا المسجد، وليستولوا على هذه البقعة المباركة، ويناصلوا عنها، وبحافظوا عليها، حتى لا يخرج من أيديهم، وفيه بشارة بأنه سيكون مسجدًا، وأنه سيظل كذلك ولو كره الكافرون، وجزى الله تعالى ضيف مصر العظيم، سماحة المفتي الأكبر الحاج "أمين الحسيني" - رحمه الله تعالى - الذي تعرّض لسفك دمه مرات كثيرة ليظل المسجد الأقصى مسجدًا، ولقد عرض عليه اليهود نصف مليون جنيه ليتنازل عن ثلاثة عشر مترًا في المسجد الأقصى فأجاب في إيمان الواثق: "والله لو جمعتم مال اليهود في العالم ما تركت لكم نصف متر".

والواقع أنها معجزات الإسلام، وأسباب من أسباب الصيانة أن يُسجّر الله أمثال سماحة المفتي لمثل هذه المواقف العظيمة، وكما أشار الله - تبارك وتعالى - إلى الإسراء أشار إلى المعراج في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَأَى نَزْلَةَ أُخْرَىٰ * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ * إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا رَآَ الْبَصَرُ وَمَا طَعَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ (النجم: 13: 18).

والذي يعنينا من الإسراء والمعراج أن كثيرًا من الناس يزعم أن الإسراء والمعراج مصادمة للنواميس الكونية، فإن انتقال إنسان من مكان إلى مكان بينهما هذه المسافة البعيدة مُحال في العادة، وبآلياتهم وقفوا عند هذا الحد، بل: قالوا: إنه عرج إلى السماء فكيف إذن يتنفس؟ وطلّوا بتشككون فترات طويلة، وأسلافنا - رضي الله عنهم - لهم جواب، ولا يزالون يقولون به في مثل هذا الموضع: إنها معجزة خارقة للعادة، وقدرة الله تعالى صالحة، وذلك سنن للمؤمنين.. ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا عَزَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (الانفطار: 8)، بل نقول لهؤلاء المنتسكين: تعالوا نفكر قليلاً... هل أدركتم سنن الكون جميعًا؟ إنكم تُقرون بأنكم لم تدركوا كل قوى الكون، ولم تُحيطوا علمًا بنواميس الطبيعة، فافرضوا هذا مما غاب عنكم علمه، ولم يصل إلى مدارككم فهمه ﴿وَمَا أَوْتَيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: 85).

ولو استعرضتم تاريخ الكشوف العلمية لتذكرتم كيف قُوبل كل كشف منها بالجُحود والتُّكران، ثم نزل العقل الإنساني بعد ذلك على حُكم الواقع بعد الإنكار والجحود، ونقول لهم كذلك: لقد أثبت العلم التجريبي الذي تعتمدون عليه أنَّ القوة النفسانية تستطيع أن تُؤثر في الأجسام المادية، فتنتقلها من مكان إلى مكان، وترتفع بها عن سطح الأرض، فإذا استطاع الإنسان بقوته النفسانية أن يفعل ذلك، وأن يأتي بهذه الأعاجيب، فهل يكون بعيدًا على الله تعالى أن يمد نبيه بالقوة الروحية التي استولت على جسمه الشريف، فصار الجسم روحانيًا محصًا، فاخترق هذا الجسم الروحاني تلك المادة؛ لأنه خرج من نطاق المادة إلى نطاق الروحية، ورحم الله "شوقي" إذ يقول:

يَهِمَا سَتَرْتِ بِمَطْهَرَيْنِ كِلَاهِمَا رُوحٌ وَرُوحَانِيَّةٌ وَضِيَاءٌ

وقالوا: إن موسى - عليه السلام - بعد أن انتهت معه فترة كلام العلي الأعلى، كان يسمع دبيب النملة من أربعة فراسخ! فما بالكم به حالة التجلي، فكيف برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد تجلّى الله تعالى عليه بالروحانية السابعة ما استطاع أن يخترق تلك الحُجُب المادية، فالروح في هذه الليلة هي صاحبة السيطرة على المعاني البدنية.

هذا وهناك نظرة أخرى تعيننا، هي حكمة الإسراء والمعراج يسأل بعض الناس: ما الحكمة في الإسراء والمعراج؟، كان أسلافنا رضي الله عنهم يقولون في الرد على هذا: أراد الله أن يكرم نبيه - صلى الله عليه وسلم -، فدعاه، فكتشف له عن ملكوت السموات والأرض

ملك الملوك إذ وهب لا تسألن عن السبب

ونحن نقول: إن الإسراء والمعراج أمر لازم لتكوينه - صلى الله عليه وسلم -؛ لأن الله تعالى بعثه ليكون سيد المؤمنين، وأستاذ الأستاذين، وجعله النبع الصافي ومشرق النور، نور العلم والهداية للوجود، ف(الدينامو) الذي يمد الدنيا بأسرها، يجب أن يشحن بأكثر قدر من العلم والإيمان وأقوى ما يكون العلم والإيمان إذ كان عن مشاهدة، لذا أطلعه الله على أسرار ملكوت السموات والأرض، ليكون من الموقنين فأمن إيمان شهود، وعلم علم يقين.. ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (النساء: 113).

وإذا كان "إبراهيم" - عليه السلام - أراه الله ملكوت السموات والأرض، فإن الله تعالى أرى نبيه - صلى الله عليه وسلم - ذلك الملكوت ليكون من الموقنين، وبصورة أوقع وأتم مما رأى إبراهيم؛ إذ كان - صلى الله عليه وسلم - خاتم النبيين، ومصدر الهداية لأهل الأرض أجمعين ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: 1) هذه واحدة..

الثانية: أنه قد فرضت في هذه الرحلة المباركة فريضة الصلاة، وذلك إعلانيًا بعظيم منزلتها فقد أراد الله تعالى أن يشعره بعلو قدرها، فقررها من فوق سبع سموات؛ ليكون ذلك إبدائيًا بقوتها وعظيم فضلها، وإلغائيًا لأنظار الناس بعلو شأنها من أقامها فقد أقام الدين.

وهناك معنى ثالث للعبارة: هو أن الله تعالى كأنه قال لهذه الأمة: يا أيها الأمة التي لم يرض لنبيها إلا مطالعة هذه العوالم تشرقيًا للقدرة، لا تكوني في ذيل الأمم، ولا ترضي بالدون، ولكن إلى العلا دائميًا، ولا تطني أن التأسى بالنبي - صلى الله عليه وسلم - في شيء، بل في كل شيء.. ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: 21).

الله نسأل أن يعيد لهذه الأمة مجدها وعزها، إنه تعالى أكرم مسؤول، وأفضل مأمول، وصلى الله على سينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.